القُنُوتْ في القرآن الكريم

م. د. عبد القادر عبد الحميد عبد اللطيف القيسي
كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد

الخبير اللغوي
د. قاسم صالح العاني

المقدمة

الحمد لله الذي قنتت له المخلوقات أجمعين، وجعل القنوت صفة المتقين، وخص بها إبراهيم (عليه السلام) ومريم وأمهات المؤمنين، وجعل قنوت الليل صفة المتهجدين، وأُصلي وأُسلم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته الغر الميامين، رضوان الله عليهم أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد.....

فإن القرآن الكريم، هو أنفس ما توجه اليه النظرات، وتنفق فيه الأوقات، وتعدُّ حوله البحوث والدراسات.

فإن لنصوصه سرّ عجيب، ففيها من الحيوية الدافعة ما تحوّل تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات تعمل في واقع الحياة. فهو يفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافى، ويرسم الاتجاه القاصد.

وقد تنوعت الطاعات لله تعالى في القرآن الكريم، واتخذت هيئات وصفات متعددة، تترقى جميعها بالنفس الانسانية إلى مدارج ومسالك غايتها نيل رضا الله تبارك وتعالى واظهار محبته.

ومن تلك الصفات والهيئات صفة القنوت، التي يتصف بها الاتقياء من هذه الأمة، فهي متأتية من تلك الطاعة النابعة من الفطرة المركوزة في النفس التقية النقية، الملازمة والمتقنة للعبادات الواجب أدائها لله تعالى.

فالقنوت يحدث في النفس أريحية للبذل تدفعها إلى أقصى ما أوجبه الله عليها وزيادة، ويحدث فيها حب الاعتزال والانقطاع اليه تبارك وتعالى، وصدق من قال:

قانتاً لله يدعو ربه..... وعلى عمد من الناس إعتزل[1]

وإضافة إلى ذلك فإن القنوت سنة من السنن الكونية، لقوله تعالى:

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾.[2]

---

[1] لم أقف على قائل هذا البيت، وقد ذكره القرطبي والشوكاني في تفسيريهما: الجامع لاحكام القرآن: ٣ / ١٩٦، وفتح القدير: ١ / ٣٨٧.

[2] سورة الروم: ٢٦.

فنرى أن جميع المخلوقات قانتةٌ لله، خاضعةٌ لإرادته ومشيئته، فيختص سبحانه ما شاء بما شاء، ويودع في فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه، وفي هذا القنوت أداء لحق الله وما يستحقه من الطاعة والانقياد.

وقد لاحظت لدى قراءتي للقرآن وتدبره أن آيات القنوت واضحة المعالم في كتاب الله الكريم، فما على الباحث إلا أن يجمعها ويرتبها ويحللّها ويبين أثرها في الاشخاص الذين يتصفون بها.

وعلى حد إطلاعي المحدود لم أجد من تناول موضوع القنوت إلا العالم الجليل ابن تيمية الحراني،(ت ٧٢٨هـ) تناوله ضمن كتابه جامع الرسائل، وسماها رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى.

فهي رسالة قيمة، كان معظم كلام المؤلف على قنوت المخلوقات، وقد جعل السجود من جنس القنوت، وأفرد له فصل، واستغرق ذلك ما يقارب من نصف رسالته.

وقنوت المخلوقات الذي تناوله ابن تيمية رحمه الله، هو من ضمن المباحث التي تناولتها في بحثي هذا، والذي قسمته إلى عشرة مباحث:

المبحث الأول: في مفهوم القنوت. المبحث الثاني: الأمة القانت نبي الله إبراهيم (عليه السلام). المبحث الثالث: مريم القانتة، المبحث الرابع: قنوت إمهات المؤمنين (رضي الله عنهن اجمعين. المبحث الخامس: قنوت المخلوقات، المبحث السادس: القنوت صفة من صفات المتقين، المبحث السابع: قنوت المرأة الصالحة، المبحث الثامن: القانتون في الصلاة، المبحث التاسع: من صفات الشخصية الإسلامية القنوت، المبحث العاشر: قنوت الليل.

ادعو الله الكريم، رب العرش العظيم، أن ينفعا بما علمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يجعلنا من عباده القانتين، والحمد لله رب العالمين، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول
مفهوم القنوت

أولاً: مفهوم القنوت لغةً:

قَنَتَ: يَقْنُتُ قُنُوتاً، والجمع: قُنَّتٌ (١)

قال إبن فارس: فهو أصل صحيح يدل على طاعة وخير في دين، لا يعدو هذا الباب، ثم سمي كل استقامة في طريق الدين قنوتاً.(٢)

والقانت: القائم بجميع أمر الله. و قَنَتَ له ذَلَّ، وقَنَتتْ المرأة لبعلها أقرَّتْ: أي سكنت وانقادت. والاقتنات: الإنقياد.(٣) ودعاء القنوت صيغة دعائية خاصة.(٤)

والمشهور في اللغة أن أصل القنوت يأتي لمعنيين:

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٢ / ٧٣.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ٣٧٣.

(٣) ينظر: لسان العرب: ٢ / ٧٣، وتاج العروس: ١ / ١١٥١.

(٤) ينظر: المعجم الوجيز: ٥١٧.

الأول: الدعاء، فالداعي إذا كان قائماً خُصَّ بأن يقال له قانت لأنه ذكر الله تعالى وهو قائم على رجليه، ويجوز أن يقع في سائر الطاعة، لأنه إن لم يكن قيام بالرجلين، فهو قيام بالنية.(٥)

والثاني: الدوام على الشيء، فكل معنى يناسب الدوام يصح إطلاق القنوت عليه، فجاز أن يسمى مديم الطاعة قانتاً، وكذلك من أطال القيام والقراءة والدعاء في الصلاة أو أطال الخشوع والسكوت، فكل هؤلاء فاعلون للقنوت.(٦)

ولهذا تعددت معانِ القنوت عند العلماء، فذكر بعضهم أربعة معان.(٧) ومنهم من قال أنها تسعة.(٨) ومنهم من أوصلها إلى ثلاثة عشر.(٩)

وقد نظمها أحمد بن محمد الهائم المصري في بيتين من الشعر فقال:

(معاني قنوت طاعة و دوامها... إقامتها سكت خشوع عبودية

صلاة قيام طوله و عبادة... دعاء وإقرار وإخلاص ذي النية).(١٠)

وكذلك نظم الحافظ العراقي في هذه المعاني الذي يذكرهاعن القاضي أبو بكر بن العربي،ونقلها الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في نهاية باب القنوت قبل الركوع وبعده

ولفظ القنوت أعدد معانيه تجد..... مزيداً على عشر معاني مرضيه

دعاء خشوع والعبادة طاعة..... إقامتها إقراره بالعبوديه

سكوت صلاة والقيام وطوله..... كذاك دوام الطاعة الرابح النيه (١١)

وعلى هذا فإن لفظ القنوت لفظ مشترك، ويرد لمعانٍ متعددة، فيصرف كل واحد من هذه المعاني إلى ما يحتمله لفظه الوارد فيه، لأن حقيقة القنوت العبادة فيجوز أن يقع في سائر هذه المعاني التي ذكرها العلماء رحمة الله عليهم أجمعين.

ثانياً: مفهوم القنوت إصطلاحاً:

فقد تباينت أقوال العلماء والمفسرين في تحديد معنىً دقيق للقنوت نظراً إلى ما ذكرت من أن لفظه مشترك ويأتي لمعان متعددة، وسأذكر أهم هذه التعاريف:

فقد ذكر الراغب الاصفهاني بأنه:(لزوم الطاعة مع الخضوع). (١٢)

---

(٥) ينظر: لسان العرب: ٢ / ٧٣، وتاج العروس: ١ / ١١٥٠.

(٦) ينظر: أحام القرآن للجصاص ١٥٦/٢، الجامع لأحكام القرآن: ٣ / ١٩٦، وفتح القدير: ١ / ٣٨٧.

(٧) ينظر: لسان العرب: ٢ / ٧٣، وتاج العروس: ١ / ١١٥٠.

(٨) ينظر: تاج العروس: ١ / ١١٥٢.

(٩) فتح القدير: ١ / ٣٨٧.

(١٠) التبيان في تفسير غريب القرآن: ١ / ١٠٥.

(١١) فتح الباري: ٤٩١/٢، كتاب الوتر، باب القنوت قبل الركوع وبعده، عمدة القارئ: ٧ / ٢١، كتاب الوتر، باب القنوت قبل الركوع وبعده، وعون المعبود: ٣ / ١٥٩، كتاب الصلاة، باب النهي عن الكلام في الصلاة.

(١٢) مفردات الفاظ القرآن: ٦٨٥.

وعرفه الحرّالي: (الثابت القائم بالأمر على قيامه تحققاً بتمكنه).(١٣)

وذهب النسفي إلى القول: (أن تذكر الله قائماً).(١٤)

أما إبن كثير فقال: (هو الطاعة في سكون)(١٥) أو هو: (طول الركود في الصلاة).(١٦)

وعرفه الثعالبي: (احضار الخشية والفكر في الوقوف بين يدي الله سبحانه).(١٧)

وقال أبو السعود بأنه:(إكمال الطاعة وإتمامها بغير إخلال بشئ من أركانها).(١٨)

أما الشوكاني فقال: (مقابلة القلب عظمة من وقف بين يديه، فإذا قابله بقلبه، فقد بذل له نفسه فقد أطاعه).(١٩)

وذهب الآلوسي بأنه: (إطالة القيام في الصلاة وإدامة الطاعة).(٢٠)

أما محمد رشيد رضا فقال: (عبارة عن الأنصراف عن شؤون الدنيا إلى مناجاة الله تعالى، والتوجه إليه لدعائه وذكره).(٢١)

وذهب الطاهر بن عاشور بأنه: (الخضوع والانقياد مع خوف).(٢٢) أو هو:(ملازمة العبادات في أوقاتها وإتقانها، وهو عبادة نفسية جسدية).(٢٣)

أما سيد قطب فرأى أن في القنوت طاعة ناشئة من الإسلام والايمان، عن رضيً داخلي لا عن اكراه خارجي فقال:

(الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة، لا عن قسر وارغام وتفلت و معاظلة).[٢٤]

يظهر من مفهوم التعاريف أن القنوت له في الأنسان أعراض داخلية و أخرى خارجية:

أما الداخلية: فهي الحاجة الملحة في الانقياء، والطاعة النابعة من الايمان الذي يتفجر من أعماق واحاسيس النفس، فهناك وازع داخلي يدعوه إلى هذه الطاعة، أو وجود طاقة كامنة في أعماق النفس الانسانية تدعوه إلى مناجاة الله تعالى.

وأما الخارجية فهي تتجلى بما يظهر على الانسان من:

أ) الانصراف عن شؤون الدنيا، والتحرر من مفاتنها وشهواتها.

---

(١٣) التعاريف: ١ / ٥٩١.

(١٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١ / ١١٧.

(١٥) تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٦٤٣.

(١٦) المصدر نفسه: ١/ ٤٨٢.

(١٧) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ١/ ١٨٦.

(١٨) إرشاد العقل السليم: ١/٢٣٥.

(١٩) فيض القدير: ٥/ ١٨.

(٢٠) تفسير المنار: ٢/ ٤٣٩.

(٢١) التحرير والتنوير: ١/ ٣٩٤.

(٢٢) المصدر نفسه: ١/ ٧٢٤.

(٢٣) في ظلال القرآن: ٢ / ٣٥٧.

ب) استحضار القلب عظمة من وقف بين يديه لمناجاته.[٢]

ت) الهيمنة على وقته، أو غالب وقته يصرفه في ذلك القنوت.

ث) أن تتحلى جوارحه بالسكينة.[٣] والسكوت.[٤]

ج) يصحب هذه المناجاة طول الركود.[٥]

ح) الانكسار والتذلل[٦] والخوف[٧] بين يدي الله تبارك تعالى.

خ) استحضار الخشية[٨] والمداومة على الضراعة.[٩]

المبحث الثاني

الأُمة القانت إبراهيم (عليه السلام)

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٠]

تذكر بعض المصادر أن معنى إبراهيم بالسريانية، الأب الرحيم.[١١] وهو أول قانت على وجه الارض، ولم يذكر القرآن الكريم قانتاً بإسمه الصريح إلا إبراهيم (عليه السلام).

وصفة القنوت هي واحدة من الصفات الكثيرة التي ذكرها القرآن لإبراهيم (عليه السلام)، ولا أريد أن أخوض في ذكرها، تمشياً مع ظل نص الآية.

وهذا الثناء من الله تعالى على إبراهيم ووصفة بالأمة القانت، ناشئ من تلك المحبة والعبادة والايمان والطاعة المطلقة التي تغمر قلبه.

يقول إبن تيمية: (حب الله تعالى هو الكمال المطلوب من معرفته، وهو من تمام عبادته، فإن العبادة متضمنة لكمال الحب مع كمال الذل، وهذا حقيقة دين إبراهيم الخليل (عليه السلام) إمام الحنفاء الذي قال الله تعال فيه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ ﴾).[١]

---

[٢] المناجاة كما يقول الراغب: أن أصله أن تخلو في نجوة من الارض، و انتجيت فلاناً: استخلصته لسري، وناجيته: أي سارررتهُ. ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٧٩٣.

[٣] السكون: ثبوت الشيء يعد التحرك، والسكينة: زوال الرعب، وإذا سكن عن الميل عن الشهوات: ينظر: المصدر نفسه: ٤١٧.

[٤] (هو ترك الكلام، ولما كان السكوت ضرباً من السكون استعير لهُ): المصدر نفسه: ٤١٦.

[٥] يقال: ركد الماء والريح، أي: سكن. ينظر: المصدر نفسه: ٧٦٤.

[٦] الذل ما كان عن قهر، ومتى كان من جهة الانسان نفسه لنفسه فمحمود: ينظر المصدر نفسه: ٣٣٠.

[٧] (هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن):منازل السائرين: ٢٦/١،(والخوف من الله يراد به الكف عن المعاصي و تحري الطاعات): مفردات الفاظ القرآن: ٣٠٣.

[٨] الخشوع: (خمود النفس وهمود الطباع لمتعاظم أو مفزع): منازل السائرين: ١/ ٢٨ – ٢٩.

[٩] الضغف والذل: مفردات الفاظ القرآن: ٥٠٦. قال الراغب: (وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة اكثر ما يستعمل فيما يوجد في القلب). المصدر نفسه: ٢٨٣.

[١٠] سورة النحل: ١٢٠.

[١١] ينظر: جلاء الافهام: ٢٦٧/١، وفتح الباري: ٦ / ٣٨٩.

[١] الصفدية: ٢/ ٢٣٤.

ويتجلى ذلك في حمد وثناء إبراهيم لله تعالى على هذا القنوت، ففي حديث أنس (رضي الله عنه) وهو يحدث عن مسرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى قال: (ثم لقي أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم فقال إبراهيم: (الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً لله).[٢]

ويصور القرآن الكريم إبراهيم (عليه السلام) – نموذجاً للهداية والطاعة والشكر والانابة لله ويقول عنه: أنه كان أمة. واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة.

قال إبن مسعود (رضي الله عنه): (الأمة معلم الخير أي: كان معلماً للخير يأتم به أهل الدنيا، وقد أجتمع فيه من الخصال الحميدة ما يجتمع في أمة).[٣]

ويحتمل اللفظ أنه كان إماماً يقتدى به في الخير.

قال قتادة: (كان إمام هدى).[٤]

وهذان القولان متقاربان في المعنى، يقول سيد قطب: (فالامام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة، وله أجره وأجر من عمل بهدايته فكان أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد).[٥]

والقانت في الآية هو المطيع وهو قول بعض المفسرين.[٦]

وأضاف بعضهم إلى الطاعة الخشوع فقالوا: الخاشع المطيع.[٧]

وقال البعض هو الطاعة المقرونة بالقيام بالأمر فقالوا: مطيعاً له قائماً بأمره.[٨]

وزاد بعضهم على الطاعة دوام العبادة فقالوا: المطيع الدائم على العبادة.[٩]

وذهب بعض المفسرين إلى أن القانت هو القائم بما أمر الله تعالى.[١٠]

وهذه الاقوال وإن تعددت المعاني فهي لا تخرج من مواظبة إبراهيم (عليه السلام) على الطاعة لله تعالى مع طول القيام في العبادة المقرونة بالخشوع في جميع حالاته وحركاته وسكناته.

وقد كان الصحابة يشبهون معاذ بن جبل رضي الله عنهم أجمعين بإبراهيم (عليه السلام) بأنه أمة قانتاً، فعن مسروق قال: قرأت عند عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه):

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ ﴾: فقال إبن مسعود: (إن معاذاً كان أمة قانتاً) قال: فأعادوا عليه فأعاد. ثم قال: أتدرون ما الأمة ؟ الذي يُعلم الناس الخير، والقانت الذي يطيع الله ورسوله).[١] وكذلك

---

[٢] جامع البيان: ٣/٨، والبداية والنهاية: ٦/ ٢٨٤.

[٣] معالم التنزيل: ١ / ٥٠.

[٤] تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٧٩.

[٥] في ظلال القرآن: ٥ / ٢٩٠.

[٦] ينظر: جامع البيان: ٧/ ٦٥٩، الوجيز: ١/ ٦٢٣، الجامع لاحكام القرآن: ١/ ١٧٤، والتفسير الواضح: ١٤ / ٧٤.

[٧] ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٧٧٩.

[٨] صحيح البخاري: ٤ / ١٧٣٩، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النحل، وينظر: أنوار التنزيل: ١ / ٤٢٥، وأرشاد العقل السليم: ٥ / ١٤٩.

[٩] ينظر الجواهر الحسان: ٢ / ٣٢٦، وفي ظلال القرآن: ٥ / ٢٩٠.

[١٠] ينظر: معالم التنزيل: ١ / ٥٠، الكشاف: ١ / ٦٧١، ومدارك التنزيل: ٢ / ٢٧٥.

كان معاذ بن جبل كان معلم الخير وكان مطيعاً لله ولرسوله (صلى الله عليه وسلم).[٢] وفي رواية الطبراني قال: كنا نشبه معاذ بن جبل بإبراهيم (عليه السلام).[٣]

المبحث الثالث

مريم القانتة (رضي الله عنها)

قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾.[٤]

وقال تعالى:﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.[٥]

مريم: إسم أَعجمي، وهو إسم أم عيسى (عليه السلام).[٦] ولم يذكر القرآن إمرأة بإسمها الصريح إلا مريم.[٧] وقد سمى القرآن أحد سوره بإسمها، وقد ذكرها بإسمها الصريح من غير إضافتها إلى إبنها عيسى (عليه السلام) في عدة مواضع.[٨] فهي مثالاً للتجرد إلى الله تعالى منذ نشأتها التي قصها الله في سور أخرى، فلا استطرد معه هنا تمشياً مع ظل النص الحاضر الذي يستهدف تصوير قنوت مريم وإيمانها الكامل.

فهي النموذج للمرأة المؤمنة القانتة يضربها الله مثلاً للمؤمنات من بعد، جيلاً بعد جيل.

فهي على ما في الأخبار من سيدات النساء وأفضلهن ومن أكملهن، فعن إبن عباس رضي الله عنهما قال: (خط رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الأرض أربعة خطوط وقال: (أتدرون ما هذا ؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم أبنة عمران وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون).[١]

---

[١] المستدرك على الصحيحين: ٢ / ٢٩٠، (٣٣٦٧) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

[٢] المصدر نفسه: ٣ / ٣٠٥، (٥١٨٨).

[٣] المعجم الكبير: ١٠ / ٥٩، (٩٩٤٥).

[٤] سورة التحريم: ١٢.

[٥] سورة آل عمران: ٤٣.

[٦] ينظر: مفردات الفاظ القرآن: ٧٦٦.

[٧] ينظر: التحرير والتنوير: ٤٤٨٨/١. قال بعضهم: لم يذكر الله في القرآن بإسمها إلا مريم، ذكرها في نحو ثلاثين موضعاً. والحكمة فيه: أن الملوك والاشراف لا يذكرون حرائر زوجاتهم بإسمائهن، بل يكنون عنهن بالأهل والعيال ونحوه، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا، فلذا صرح بإسمها إلى أنها أمة من إماء الله، وابنها عبد من عبيد الله، رداً على اليهود الذين قالوا في عيسى عليه السلام ، وأمه ما قالوا: ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١ / ١٦٣.

[٨] سورة آل عمران: ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، سورة النساء: ١٥٦، ١٧١، سورة مريم: ١٦، ٢٧، والتحريم: ١٢.

[١] صحيح أبن حبان: ١٥ / ٤٧٠، (٧٠١٠)، مسند أحمد: ١/ ٣١٦، (٢٩٠٣)، المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٥٣٩، (٣٨٣٦)، والآحاد المثاني: ٥/ ٣٦٤، (٢٩٦٢).

وعن أبي موسى الاشعري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران وآسية إمرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام).[٢]

وقد ذكر القرآن الكريم أن مريم (كانت من القانتين) قال بعض المفسرين: من عداد المواظبين على الطاعة.[٣]

وقيل: من المصلين كانت تصلي بين المغرب والعشاء.

وقال بعضهم: ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها فإنهم كانوا إهل صلاح مطيعين لله.[٤]

والسبب في تذكير القانتين مع كونها أنثى، مع أن الأصل أن تكون من القانتات، هو أن التذكير هنا للتغليب.[٥] والإشعار بأن طاعتها لم تقتصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم أو من نسلهم.[٦]

ويجوز أن تكون (من) للتبعيض، أي هي بعض من قنت لله تعالى.

ويجوز أن تكون لإبتداء لغاية، والمعنى: أنها كانت من نسل القانتين، لأنها من ذرية هارون أخي موسى (عليه السلام).[٧]

وعن مجاهد قال: لما قيل لها: (يامريم أقنتي لربكِ) قامت حتى ورم كعباها وفي رواية قدماها، والقنوت: هو طول الركود في الصلاة.

وعن الربيع قال: القنوت: الركود، بمعنى إركدي لربك أي انتصبي له في الصلاة. وقال الاوزاعي: كانت تقوم حتى يسيل القيح من قدميها.

وفي رواية: ركدت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة حتى نزل الماء الأصفر في قدميها.

وعن يحيى بن كثير قال: سجدت حتى نزل الماء الأصفر من عينيها.[٨]

فلهذا كانت اختيارها واصطفائها على نساء العالمين لكثرة وطول ركودها في العبادات والطاعات حسبما أمرت بها، مجتهدة فيها، مقبلة على الله، متبتلة اليه تعالى، منسلخة من مفاتن الدنيا وزخرفها، مقبلة إلى مناجاة الله في سكينة وطمأنينة ووجل، غارقة في الخضوع والتضرع، كل ذلك من أجل رضا الله تعالى عنها فرضى الله عنها وأرضاها.

---

[٢] صحيح البخاري:٣/ ١٣٧٤ (٣٥٥٨)، صحيح مسلم: ٤/ ١٨٨٦، (٢٤٣١)، سنن الترمذي:٤/٢٧٥، (١٨٣٤). قال ابو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

[٣] ينظر: أنوار التنزيل:١/٣٥٨، وارشاد العقل السليم: ٨/ ٢٧٠.

[٤] ينظر: الجامع الأحكام القرآن: ١٨/ ١٧٩، وفتح القدير ٥/ ٣٥٨.

[٥] والتغليب هو: (اعطاء الشيء حكم غيره، وقيل ترجيح أحد المغلوبين على الآخر، أو إطلاق لفظه عليهما إجراءً للمختلفين مجرى المتفقين). البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٠٢، وينظر الأتقان:٢/ ١٠٨.

[٦] ينظر: أنوار التنزيل:١:٣٥٨، ارشاد العقل السليم: ٨/ ٢٧٠، وروح المعاني: ٢٨ / ١٦٥.

[٧] ينظر: معالم التنزيل: ٤/ ٢٦٢، روح المعاني: ٢٨/ ١٦٥، والتحرير والتنوير: ١/ ٤٤٨٨.

[٨] ينظر: جامع البيان: ٣ / ٢٦٣، تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٨٢، والدر المنثور: ٢ / ١٩٥.

المبحث الرابع

قنوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾.[2]

الأُم بإزاء الأب، وهي الوالدة القريبة التي ولدته، وتطلق على البعيدة التي ولدت من ولدته.[3]

وسمى الله تعالى أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) أمهات المؤمنين فقال:

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾.[4]

فهذه الصفة تترتب عليها واجبات ثقيلة، ولهذه الأمومة تكاليفها وخصوصيتها، فقد بين القرآن لإمهات المؤمنين اختصاصهن بما لغيرهن من النساء، ووضح واجباتهن في معاملة الناس وعبادة الله، وما عليهن من واجبات في بيوتهن، وما احاطه الله من رعاية خاصة لهذا البيت الكريم، وما يتلى فيه من آيات الله والحكمة، ولهذا أفردهن من بين نساء العالمين.[5]

قال تعالى: ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء ﴾.[6]

وقد حدد القرآن الكريم القيم التي ينبغي أن تجد ترجمتها الحية في بيت النبي (صلى الله عليه وسلم)، فلا بد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه، ولا بد من قنوت لله ترتفع به إمهات المؤمنين على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة، ليشعرن أنهن أهدى وأعلى من الناس والمجتمع والبيئة، ليكون بيت النبوة الطاهر منارة يهتدي بها السالكون. فخص الله تبارك وتعالى امهات المؤمنين بقنوتين الأول: لله تعالى، والثاني لرسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وفسر أهل التأويل القنوت لإمهات المؤمنين بأنه: الطاعة، والمعنى: تطع الله ورسوله وتستجب لهما.[1]

وقيل: المواظبة والدوام على الطاعة، وبالعمل الصالح العبادات التي يكلفن بها.[2]

وقيل: هو الخشوع والخضوع، والعمل الصالح هو الترجمة العملية للخشوع والخضوع.[3]

---

[1] – سورة الأحزاب: ٣١.

[2] – سورة التحريم: ٥.

[3] – ينظر مفردات الفاظ القرآن: ٨٥.

[4] – سورة الأحزاب: ٦.

[5] – ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٥٧٩.

[6] – سورة الأحزاب: ٣٢.

[1] – ينظر: معاني القرآن للنحاس: ٥ / ٣٤٥، الكشاف: ١ / ٩٩٥، الجامع لاحكام القرآن: ١٤ / ١٥٥، مدارك التنزيل: ٣ / ٣٠٤، الدر المنثور: ٦ / ٥٩٥، وفتح القدير: ٤ / ٣٩٣.

[2] – ينظر أنوار التنزيل: ١ / ٢٥٦، ارشاد العقل السليم: ٨ / ٢٦٨.

وقيل: السكوت عن طلب ما لم يأذن الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) لإمهات المؤمنين به من زيادة النفقة وثياب الزينة وغير ذلك.[٤]

وعلى هذا فإن معنى القنوت لإمهات المؤمنين هو القيام بالطاعة لله ورسوله على أحسن قيام والمواظبة على هذه الطاعة، المقرونة بالخشوع والخضوع، والاستسلام المطلق لجميع أعضاء وحواس وكيان أمهات المؤمنين، لإظهار بيت النبوة بما يناسبه من السكينة والسمت والوقار.

وقد وصف الله تعالى أمهات المؤمنين بصفات (مسلمات مؤمنات قانتات...) ولم يعطف هذه الصفات بعضها على بعض بالواو، لإجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن.

ولو عطف تلك الصفات بالواو لاحتمل أن تكون الواو للتقسيم، أي تقسيم امهات المؤمنين إلى من يثبت لهن بعض تلك الصفات دون البعض.[٥]

وبهذا تصبح صفة القنوت صفة قائمة بنفسها تثبت لكل واحدة من إمهات المؤمنين.

وفي وصفهن (بالقانتات) فيه إشعار بأنهن مطيعات لله ورسوله وفيه تعريض لما وقع من تقصير إحداهن في ذلك فعاتبها الله وايقظها للتوبة.[٦]

فلهذا كان التوجيه الإلهي لإمهات المؤمنين بالقنوت، ليكون بيت النبوة

بالمستوى الذي يكون منار إشعاع، وسبيل هدى، وإسوة وملاذاً لكل من دخل قلبه نور الإيمان، فرضي الله تعالى عنهن وأرضاهن أجمعين.

المبحث الخامس
قنوت المخلوقات

قال تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾.[٧]

وقال: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾.[١]

يقال: خَلَقَ الله العالم – خَلْقاً: صَنَعَهُ وأَبْدَعَهُ.[٢]

قال الراغب: والخَلْقُ يقال في معنى المخلوق، وأصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل، وخص الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر.[٣]

والخليقة: المخلوقات أو الطبيعة التي يخلق المرءُ بها.[٤]

---

[٣] – ينظر: روح المعاني: ٢٢ / ٢، وفي ظلال القرآن: ٦ / ٢٧٩.

[٤] – ينظر: روح المعاني: ٢٢ / ٢.

[٥] – ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٤٤٨٠.

[٦] – المصدرالسابق: ١ / ٤٤٨٠.

[٧] – سورة البقرة:١١٦.

[١] – سورة الروم:٢٦.

[٢] – ينظر المعجم الوجيز: ٢٠٩.

[٣] – ينظر مفردات الفاظ القرآن: ٢٩٦ – ٢٩٧.

[٤] – ينظر المعجم الوجيز: ٢٠٩.

والتعبير القرآني يصور هذه العلاقة بين هذه المخلوقات وكيفية قنوتها، للدالة على أن نظام الكون، وهذه السلطة المطلقة على مقدراته، خاضع لمن له التفرد في الملك، ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾.[٥] فكل ما في الآفاق والأعماق والأغوار، والظواهر والاحوال ـ خاضع لمشيئة الله، وخاشع لأرادته.

يقول سيد قطب: (إنما يعني خضوع كل من في السموات والأرض لإرادة الله ومشيئته التي تصرفهم وفق السنّة المرسومة التي لا تتخلف ولا تحيد. فهم محكومون بهذه السنّة ولو كانوا عصاة كافرين. إنما تعصي عقولهم وتكفر قلوبهم ولكنهم مع هذا محكومون بالناموس مأخوذون بالسنُة، يتصرف فيهم خالقهم وفق ما يريد تصّرفه بباقي العبيد وهم لا يملكون إلاّ الخضوع والقنوت).[٦]

فجميع هذه المخلوقات قانتة لعزة الله وجلاله، خاضعة خضوعاً قهرياً، ومسخرة لإرادته، لا فرق بين العاقل وغيره.

يقول محمد رشيد رضا: (وقد غلب في الملكية ما لا يعقل فقال (له ما في السموات) لان المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، لا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب بأختياره، ويستوي في التسخير الطبيعي العاقل وغيره، ولكن في غير العاقل أظهر.

ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه بضمير العاقل فغلب فيه العقلاء، لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله بأختياره، وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به).[٧]

ثم يضيف قائلاً: (فقد حكم على الجميع بالملكية والقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالباً في غير العاقل وهي كلمة (ما) لان المعهود في ذوق اللغة وعُرّفْ أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل،وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء لأنه من اعمالهم، ومما يعهد منهم ويسند اليهم لغةً وعرفاً).[١]

وإلى هذا ذهب الطاهر بن عاشور وذكر أن قوله (قانتون) جاء بصيغة جمع المذكر السالم المختص بالعقلاء تغليباً لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة.[٢]

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تعيين معنى قانتون على أقوال:

الأول: مطيعون وخاضعون فالمخلوقات كلها تقنت لله أي تخضع وتطيع.[٣]

الثاني: مُقرّون لله تعالى بالعبودية.[٤]

---

[٥] – سورة غافر: ١٦.

[٦] – في ظلال القرآن: ٦ / ٤٥١.

[٧] – تفسير المنار:١ / ٤٣٧.

[١] – المصدر نفسه: ١ / ٤٣٧.

[٢] – ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٣٩٤.

[٣] – ينظر: جامع البيان: ١ / ٥٥٤، معالم التنزيل: ١ / ١٤١، الكشاف: ١ / ٩١، الجامع لاحكام القرآن: ١٤ / ١٨، تفسير القرآن العظيم: ١ / ٢٢١، وفتح القدير: ٤ / ٣١٤.

[٤] – ينظر: جامع البيان: ١ / ٥٥٤، معالم التنزيل: ١ / ١٤١، زاد المسير: ١ / ١٣٦، وتفسير القرآن العظيم: ١ / ٢٢١.

الثالث: كل له قائم يوم القيامة.[٥]

الرابع: منقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه.[٦]

قال إبن جرير الطبري:

(وأولى معاني القنوت في قوله: (قانتون) الطاعة والأقرار لله عزوجل بالعبودية، بشهادة اجسامهم بما فيها من آثار الصنعة والدلالة على وحدانية الله عزوجل وأن الله تعالى ذكره، بارئها وخالقها... ثم أخبر عن جميع ما في السموات والأرض إنها مقرة بدلالتها على ربها وخالقها، وإن الله تعالى بارئها وصانعها، وان جحد ذلك بعضهم فألسنتهم مذعنة له بالطاعة بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها).[٧]

وبهذا يظهر جلياً قنوت تلك المخلوقات بالتسخير والانقياد لمشيئة الله عزوجل وأرادته، والخاضعة خضوعاً قهرياً لتلك السلطة المطلقة التي تسير نظام الكون.

المبحث السادس

القنوت صفة من صفات المتقين

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ۞ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾.[٨]

التقوى: (هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبتة، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك).[٩]

وقال الراغب: (التقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف.... وفي تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات).[١]

وفي هذه الآية يصور القرآن الكريم حال المتقين مع ربهم، الذين تجردوا من جميع الشهوات الحسية والمعنوية، لنيل رضاء الله تعالى.

يقول سيد قطب:

(وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعاً. شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات، وأن تنساق فيها كالبهيمية. فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون اليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس ! وفي حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة ! ويرتفعون بالتطلع اليه – وهم في هذه الارض – قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى قرب الله...).[٢]

---

[٥] – ينظر: جامع البيان: ١ / ٥٥٤، معالم التنزيل: ١ / ١٤١، و زاد المسير: ١ / ١٣٦.

[٦] – معالم التنزيل: ١ / ٦٦، الكشاف: ١ / ٩١، أنوار التنزيل: ١ / ٣٨٨ و ٣٣٤، وارشاد العقل السليم: ٧ / ٥٨.

[٧] جامع البيان: ١ / ٥٥٤.

[٨] – سورة آل عمران: ١٦.

[٩] – التعريفات: ٦٩.

[١] – مفردات الفاظ القرآن: ٨٨١.

[٢] – في ظلال القرآن: ١ / ٥٥١ – ٥٥٢.

وهذه الصفات التي يعددها القرآن في هذه الآية ومن ضمنها صفة القنوت، وهي عائدة على: ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾.[٣]

وقد ذكر محمد رشيد رضا، أن الله وصف المتقين بهذه الصفات التي استحقوا بها الدرجات، وهو الظاهر على القول بأن قوله: (الذين يقولون) وصف (للذين اتقوا).[٤]

وقد ذكر البيضاوي أن هذه الصفات هي (صفة للمتقين)[٥]

وفي كل صفة من هذه الصفات تتحقق سمة ذات قيمة في حياة الإنسانية، وكأن الله تبارك وتعالى يشهد للمتقين بأنهم بهذه الصفات ممدوحة في ذاتها.[٦] وقد قال البيضاوي في تصنيف تلك الصفات بأنها: (حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل و إما طلب. والتوسل: إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما.

وإما بالبدن: وهو إما قولي وهو الصدق، وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، و إما بالمال وهو الانفاق في سبيل الخير.

واما الطلب: فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب).[٧]

وقد ذكر المفسرون في معنى (القانتين) معنيين:

الأول: المطيعين لله والخاضعين له.[٨]

يقول سيد قطب:

(وفي القنوت لله أداء لحق الإلوهية وواجب العبودية ؛ وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت لله الواحد الذي لا قنوت لسواه).[١]

الثاني: المواظبين والمداومين على العبادة.[٢]

يقول محمد رشيد رضا:

(أن القنوت هو المداومة على الخشوع والضراعة، أي على روح العبادة ولبابها).[٣]

وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن القنوت: (هو ملازمة العبادات في أوقاتها وأتقانها وهي عبادة نفسية جسدية).[٤]

---

[٣] – سورة آل عمران: ١٥.

[٤] – تفسير المنار: ٣ / ٢٥١.

[٥] أنوار التنزيل: ١ / ١٦.

[٦] ينظر: تفسير المنار: ٣/ ٢٥١.

[٧] أنوار التنزيل: ١ / ١٦.

[٨] تنظر: جامع البيان: ٣ / ٢٠٧، مدارك التنزيل: ١ / ١٦، الجامع لاحكام القرآن: ٤ / ٤١، الدر المنثور: ٢ / ١٦٤، وروح المعاني: ٢ / ١٠٢.

[١] في ظلال القرآن: ١ / ٥٥٣.

[٢] ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٤٧٠، ارشاد العقل السليم: ٢ / ١٦، وروح المعاني: ٢ / ١٠٢.

[٣] تفسير المنار: ٣ / ٢٥٢.

وقد ذكرت صفات المتقين في هذه الآية معطوفة تتوسطها الواو، مع أن هذه الأوصاف المعدودة تسرد غير معطوفة، وذلك لسببين:

الأول: للدلالة على استقلال كل صفة من هذه الصفات.[٥]

الثاني: للارشاد بأن كل صفة من هذه الصفات مستقلة بالمدح.[٦]

وبهذا تظهر صفة القنوت بأنها صفة مستقلة بذاتها، يتصف بها الأتقياء من هذه الأمة، تتجسد في المداومة والمواظبة على الخشوع والضراعة لله، متأتيةً من

تلك الطاعة النابعة من الفطرة المركوزة في النفس التقية النقية الملازمة والمتقنة للعبادات الواجب أدائها لله تعالى.

المبحث السابع
قنوت المرأة الصالحة

قال تعالى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ ﴾.[١]

الصلاح: ضد الفساد.[٢]

قال الراغب:(وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح).[٣]

وهذه الآية من ضمن التوجيهات القرآنية التي ترد في تنظيم الأسرة، وتفصيل لحال النساء في هذه الحياة المنزلية، التي تكون المرأة فيها تحت قوامة الرجل.

وقد قسّم القرآن الكريم النساء إلى قسمين: صالحات، وغير صالحات. وشرع في تفصيل أحوال الصالحات:

وقد تباينت أقوال المفسرين في تحديد معنى الصالحات: فذكر الطبري أنهن المستقيمات على الدين، العاملات بالخير، فعن عبد الله بن المبارك (رضي الله عنه) قال: الصالحات يعملن بالخير.[٤]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أنهن: المحسنات إلى أزواجهن.[٥]

أما الثعالبي فذهب إلى القول أنه الصلاح في الدين.[٦]

ثم وصف القرآن الصالحات بوصفين:

---

[٤] التحرير والتنوير: ١ / ٧٢٤.

[٥] ينظر: أنوار التنزيل ١ / ١٦، معالم التنزيل: ١ / ١٤٥، ارشاد العقل السليم: ٢ / ١٦.

[٦] ينظر: معالم التنزيل: ١ / ١٤٥، ارشاد العقل السليم: ٢ / ١٦.

[١] سورة النساء: ٣٤.

[٢] ينظر: مقاييس اللغة: ٢ / ١٧، ومفردات الفاظ القرآن: ٩ / ٤٨٩.

[٣] مفردات الفاظ القرآن: ٤٩٠.

[٤] ينظر: جامع البيان: ٤ / ٥٩.

[٥] ينظر: زاد المسير: ٢ / ٧٤.

[٦] ينظر الجواهر الحسان: ١ / ٣٦٩.

الأول: القنوت.

الثاني: حفظ حق الأزواج.

وقد اتفقت أقوال المفسرين في تحديد معنى قانتات في الآية بأنهُ مطيعات لله تعالى، قائمات بحقوق أزواجهن.[٧]

قال القرطبي: (هذا كله بر ومقصوده الأمر بطاعة الزوج، والقيام بحقه في ماله، وفي نفسها، وفي حال غيبة الزوج).[٨]

وقد وصف حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المرأة الصالحة وصفاً دقيقاً، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) أي النساء خير ؟ فقال: (خير النساء من تسر إذا نظر وتطيع إذا أمر و لا تخالفه في نفسها ومالها).[١]وقد ذكر الطبري أن هذا الخبر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدلل على صحة ما ذهب إليه في معنى قانتات فقال: (صالحات في ديانتهن، مطيعات لأزواجهن، حافظات لهم في أنفسهن وأموالهم).[٢]

وقد ذهب الجصاص إلى أن القنوت: مداومة الطاعة[٣] وعلى هذا فهي صفة ملازمة المرأة السمع والقيام على طاعة الزوج على أتم وجه، فهي فطرة قد جعلها الله تبارك وتعالى في تكوين المرأة الصالحة.

يقول سيد قطب:

(فمن طبيعة المؤمنة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها، أن تكون قانتة.. مطيعة. والقنوت: الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاضلة ! ومن ثم قال: قانتات. ولم يقل طائعات. لأن مدلول اللفظ الأول نفسي، وظلاله رخية ندية.. وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة. في المحضن الذي يرعى الناشئة، ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته !).[٤]

---

[٧] ينظر: تفسير مجاهد: ١ / ١٥٥، تفسير الصنعاني: ١ / ١٥٧، جامع البيان: ٤ / ٥٩، معالم التنزيل: ١ / ٢٠٦، زاد المسير: ٢/ ٧٤، مدارك التنزيل: ١ / ٢٢٠، تفسير القرآن العظيم: ١ / ٦٥٣، أنوار التنزيل: ١ / ١٨٤، أرشاد العقل السليم: ٢ / ١٧٤، وفتح القدير: ١ / ٦٩٤.

[٨] الجامع لاحكام القرآن: ٥ / ١٦١.

[١] المستدرك على الصحيحين:٢ / ١٧٥، (٢٦٨٢)، سنن النسائي الكبرى: ٥ / ٣١٠،(٨٩٦١)، وكشف الخفاء: ٢ / ٢٤٢، (١٢٦٢).

[٢] جامع البيان: ٤ / ٥٩.

[٣] ينظر: أحكام القرآن: ٣ / ١٤٩.

[٤] في ظلال القرآن: ٢ / ٣٥٧.

المبحث الثامن
القانتون في الصلاة

قال تعالى: ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ ﴾.[٥]

الصلاة لغةً: هي الدعاء، والتبريك، والتمجيد.[٦] وشرعاً: فهي عبارة عن: (أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير و مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة).[٧]

وحفظ الصلاة على الأستمرار عبارة عن الاتيان بها كل مرة كامة الشرائط والاركان العملية، كاملة الأداب والمعاني القلبية، فالشيء الذي يتعاهد بالحفظ دائماً هو الذي لا يلحقه النقص، و إلاّ لم يكن محفوظاً دائماً.[٨]

قال البقاعي:

(ولما كانت الصلاة من أجلّ ماعهد فيه من أمر الدين وآكده، وهي من الأمور الخفية التي وقع الائتمان عليها، لما خفف الله فيها على هذا الأمة بأيساع زمانها ومكانها قال: (والذين هم على صلواتهم) التي وصفوا بالخشوع فيها (يحافظون).[١] أي: يجددون تعهدها بغاية جهدهم، لا يتركون شيئا من مفروضاتها ولا مسنوناتها، ويجتهدون في كمالاتها). [٢]

وقد كان لشرط القنوت في الصلاة أن يكون في حال القيام الذي هو الوقوف، وهو ركن في الصلاة لا يترك إلا لوجود عذر. [٣]

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تحديد معنى (قانتين):

فمنهم من يرى أن معناه السكوت، وذلك أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة حتى نزلت هذه الآية.[٤] فعن زيد بن أرقم (رضي الله عنه) قال: (كنا نتكلم في الصلاة يكلم أحدنا أخاه في حاجته حتى نزلت هذه الآية (وقوموا لله قانتين)، فأمرنا بالسكوت).[٥]

ولهذا امتنع النبي (صلى الله عليه وسلم) من الرد على إبن مسعود (رضي الله عنه) حين سلم عليه وهو في الصلاة واعتذر إليه بذلك وقال: (إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلاّ أَنّا أُمرنا أن نقوم قانتين لا نتكلم في الصلاة).[٦]

---

[٥] سورة البقرة: ٢٣٨.

[٦] ينظر: مفردات الفاظ القرآن: ٤٩٠ – ٤٩١.

[٧] مغني المحتاج: ١ / ١٢٠، اشرف المسالك: ١ / ٣٠.

[٨] ينظر: تفسير المنار: ٢ / ٤٣٧.

[١] سورة المؤمنون: ٩.

[٢] نظم الدرر: ١٣ / ١٠٩.

[٣] ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٦٨٣.

[٤] ينظر: جامع البيان: ٢ / ٥٧٨، معالم التنزيل: ١ / ٢٨٧– ٢٨٨، الجواهر الحسان: ١ / ١٨٦، والدر المنثور: ١ / ٧٣٠.

[٥] صحيح البخاري: ٤ / ١٦٤٨، (٤٢٦٠)، صحيح مسلم: ١ / ٣٨٣، (٥٣٩).

وقال بعضهم: أن القنوت: الطاعة، ومعنى ذلك وقوموا لله في صلاتكم مطيعين له فيما أمركم به فيها ونهاكم عنه.[٧]

وعن سعيد بن جبير أنه سئل عن القنوت فقال: القنوت الطاعة.

وعن الضحاك قال:(لكل أهل دين صلاة يقومون في صلاتهم عاصين فقوموا لله مطيعين).[٨]

وقد ذهب بعض العلماء أن المراد بالقنوت هو الخشوع لله تعالى.[٩]

قال إبن كثير: (أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها).[١٠]

وقد رجح سيد قطب هذا الرأي بقوله: (الأرجح أنه يعني الخشوع لله والتفرغ لذكره في الصلاة، وقد كانوا يتكلمون في أثناء الصلاة فيما يعرض لهم من حاجات عاجلة، حتى نزلت هذه الآية فعلموا أن لا شغل في الصلاة بغير ذكر الله والخشوع له والتجرد لذكره).[١١]

وقال آخرون أن المراد بالقنوت هو المداومة على الضراعة والخشوع.[١٢]

يقول محمد رشيد رضا: (إن في القنوت معنى المداومة على الضراعة والخشوع، أي قوموا ملتزمين لخشية الله تعالى واستشعار هيبته وعظمته، ولا تكتمل الصلاة وتكون حقيقية ينشأ عنها ما ذكر الله تعالى من فائدتها إلا بهذا، وهو يتوقف على التفرغ من كل فكر وعمل يشغل عن حضور القلب في الصلاة، وخشوعه لما فيها من ذكر الله بقدر الطاقة).[١]

ومنهم من يرى أن القنوت هو طول القيام.[٢] لقوله (صلى الله عليه وسلم) (أفضل الصلاة طول القنوت).[٣]

وقد ذهب العض الآخر إلى قول بأن القنوت هو الدعاء.[٤]

وفي الحديث ان النبي (صلى الله عليه وسلم) قنت شهراً يدعو على رعل وذكوان.[٥]

وقال آخرون ان القنوت هو الركود في الصلاة.[٦] فقد روى أنه إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمد بصره أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا.[٧]

---

[٦] موطأ مالك: ١ / ٢٦٧،(١٧٦).

[٧] ينظر: تفسير مجاهد: ١ / ١١١، جامع البيان: ٢ / ٥٧٨، ومعالم التنزيل: ١ / ١٨٧ – ٢٨٨.

[٨] جامع البيان: ٢ / ٥٧٨.

[٩] ينظر: أنوار التنزيل: ١ / ٥٣٦ / الجواهر الحسان: ١ / ١٨٦، مدارك التنزيل: ١ / ١١٧.

[١٠] تفسير القرآن العظيم: ١ / ٣٨٩.

[١١] في ظلال القرآن: ١ ٣٧٧.

[١٢] ينظر: تفسير المنار: ٢ / ٤٣٨، والتحرير والتنوير: ١ / ٦٨٣.

[١] تفسير المنار: ٢ / ٤٣٨.

[٢] ينظر: زاد المسير: ١ / ٢٨٤، الجواهر الحسان: ١ / ١٨٦، فتح القدير: ١ / ٣٨٧.

[٣] صحيح مسلم: ١ / ٥٢٠، (٧٥٦)، سنن الترمذي: ٢ / ٢٢٩، (٣٨٧)، وقال عنه حديث حسن صحيح.

[٤] ينظر: الجامع لاحكام القرآن: ٣ / ١٩٦، معالم التنزيل: ١ / ٢٨٩، والجواهر الحسان: ١ / ١٨٦.

[٥] صحيح البخاري: ٣ / ١١١٥، (٢٨٩٩)، صحيح مسلم: ١ / ٤٦٨، (٦٧٧).

ومنهم من يرى أنه القنوت في صلاة الصبح.[٨] فعن أبي رجاء العطاردي قال: (صليت خلف إبن عباس رضي الله عنهما الفجر فقنت فيها ورفع يديه ثم قال: (هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا الله أن نقوم فيها قانتين).[٩]

وقد جمع إبن جرير الطبري بين هذه الأقوال بقوله: أن أولاها بالصواب، هو قول من قال: مطيعين، وذلك أن أصل القنوت الطاعة، وقد تكون الطاعة لله في الصلاة بالسكوت عما نهاه الله عنه من الكلام فيها، وقد تكون الطاعة لله فيها بالخشوع وخفض الجناح وإطالة القيام بالدعاء، لأن كل ذلك غير خارج من أحد معنين: إما أن يكون مما أمر به المصلي أو مما ندب إليه العبد، بكل ذلك لله مطيع، وهو لربه فيه قانت.[١٠]

وإلى هذا المعنى ذهب القرطبي بالقول:

(ان أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء، ومن حيث كان أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء جاز أن يسمى مديم الطاعة قانتاً، وكذلك من أطال القيام

والقراءة والدعاء في الصلاة وأطال الخشوع والسكوت كل هؤلاء فاعلون للقنوت).[١]

المبحث التاسع

من صفات الشخصية الإسلامية القنوت

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾.[٢]

أستطرد القرآن الكريم في بيان جزاء المؤمنين والمؤمنات كافة، الرجال والنساء فيه سواء، فيذكر أهم الصفات التي تحقق القيم الإسلامية في دقة واسهاب وتفصيل.

وهذه الصفات الكثيرة التي جمعت في هذه الآية تتعاون في تكوين النفس المؤمنة ولكل منهما قيمته في بناء الشخصية المسلمة.

فالإسلام يعالج النفس المسلمة من الداخل بهذه الصفات، وهي جامعة لأصول الشريعة كلها.

يقول الطاهر بن عاشور:

---

[٦] ينظر: جامع البيان: ٢ / ٥٧٩، والكشاف: ١ / ١٤٣.

[٧] ينظر: الكشاف: ١ / ١٤٣.

[٨] ينظر: أنوار التنزيل: ١ / ٥٣٦، ارشاد العقل السليم: ١ / ٢٣٥، وتفسير المنار: ٢ / ٤٣٩. والقنوت في صلاة الصبح على خلاف بين الفقهاء، فمنهم من يرى أنه مستحب، ومنهم من يرى أنه سنه، وخصه أخرون بصلاة الوتر،وقال بعضهم لا قنوت إلاّ في رمضان وغير ذلك، ينظر: بداية المجتهد: ١ / ٢٠٧، الجامع لاحكام القرآن: ٤ / ١٩٥، والمغني: ١/ ٨٢٠.

[٩] جامع البيان: ٢ / ٥٧٩.

[١٠] ينظر: جامع البيان: ٢ / ٤٧٩.

[١] الجامع لاحكام القرآن: ٣ / ١٩٦.

[٢] سورة الاحزاب: ٣٥.

(وسلك مسلك الإطناب في تعدد الأوصاف لأن المقام لزيادة البيان لإختلاف أفهام الناس في ذلك، على أن في هذا التعداد إيماء إلى أصول التشريع).[٣]

فهذه الصفات هي التي تهذب روح المسلم، وترتقي بها إلى مراتب تعصمها من التهاوي والسقوط في الرذيلة.

فالقنوت يهذب النفس من جانب أنه يجمع الطاعات كلها مفروضها ومسنونها، وترك المنهيات والاقلاع عنها ممن هو مرتكبها،وهذا هو معنى التوبة.

وفي القنوت تمام الطاعة والمواظبة عليها وهذا معنى مساوٍ للتقوى.[٤]

فاالقنوت طاعة ناشئة ومتحصلة من تلك الطاعة المتمثلة بأركان الإسلام، وأركان الايمان، الباعث عليه رضى النفس، فهو رضى داخلي لا عن إكراه خارجي.[٥]

فالقنوت تتساوى فيه النساء مع الرجال، وتتساوى أيضاً بالصفات الباقية المذكورة في الآية.

يقول الطاهر بن عاشور: (فالمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة النساء، وأما ذكر الرجال فللاشارة إلى أن الصنفين في هذه الشرائع سواء،

ليعلموا أن الشريعة لا تختص بالرجال... ، فشريعة الإسلام تعكس ذلك الأصل في شرائعها أن تعم الرجال والنساء الإ ما نص على تخصيصه بأحد الصنفين).[١]

وبهذه الاوصاف التي ذكرت فيها النساء في الآية نجد الحاجة الملحة للأجابة على أمرٍ تخفيه النساء عن حالهن، ولو رجعنا إلى سبب نزول هذه الآية لوجدنا الأجابة الشافية لذلك.

فقد تعددت الرويات في سبب نزولها.[٢] وقد أوصلها بعضهم إلى خمس روايات.[٣] أجمعت هذه الروايات على سؤال يتردد في نفوس المسلمات، هل هن مأجورات على ما يعملن من الحسنات، وهل هن مأمورات بمثل ما أمرت به أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم)، فكان في هذه الآية جواب لهذا السؤال على عادة القرآن إذا ما ذكر مأمورات يعقبها بالتذكير بحال أمثالها أو بحال أضدادها.[٤]

ومن بعض ما أمرت به أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم)، القنوت في قوله ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾.[٥] وقوله: ﴿ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ﴾.[٦] فجاء التذكير بحال أمثالها في هذه الآية: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾.[٧]

---

[٣] التحرير والتنوير: ١ / ٣٣٥٤.

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ١ / ٣٣٥٥.

[٥] ينظر في ظلال القرآن: ٦ / ٥٨٧.

[١] التحرير والتنوير: ١ / ٣٣٥٤.

[٢] سنن الترمذي: ١ / ٢٣٧ و ٣٥٤، جامع البيان: ١٠ / ٢٩٩، تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٦٤٣، العجاب في بيان الاسباب: ٢ / ٨٦، ولباب النقول: ١ / ٦٧ و ١٧٤.

[٣] ينظر: زاد المسير: ٦ / ٣٨٣ – ٣٨٤.

[٤] ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٣٣٥٤.

[٥] سورة الأحزاب: ٣١.

فقد سلك القرآن نفس التسلسل في الآيتين بذكر الأسلام ثم الإيمان ثم القنوت. ويذكر الطاهر بن عاشور، أن هذه الآية وأمثالها لعللها تقرر أصل التسوية فأغنى عن التبيه عليه في معظم أقوال القرآن، ولعل هذا وجه تعدد الصفات المذكورة لئلا يتوهم التسوية في خصوص صفة واحدة.[٨]

وبهذا تصبح صفة القنوت من صفات بناء الشخصية الإسلامية، الناشئة من المواظبة على أداء الطاعة المتمثلة بأركان الإسلام وأركان الايمان، فالالتزام بهما يترقى بالنفس إلى مرحلة القنوت، فهو ثمرة لذلك الالتزام.

المبحث العاشر
قنوت الليل

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾.[١]

الليل معروف وهو الذي يأتي عقب النهار،ومبدؤه من غروب الشمس.[٢]

أوهو: (زمن الظلمة من بعد العشاء الى الفجر).[٣]

في هذا الليل الذي جعله الله سكناً، ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ﴾.[٤] سكنت جميع مخلوقات الله على هذه الأرض، فمن ذا الذي دفع هذا القانت في هذا الليل، يحرم نفسه متعة النوم. وفي هذا الظلام يقوم يتوجس خيفة من البارئ تتحرك احاسيسه ووجدانه، فيبث شجونه وأحزانه، الى من تجلت عظمته في ملكوت السموات والأرض، يقف بين يديه يدعوه بضراعة ووجل،وتتحرك أحاسيسه بذاك النبض الهادئ الذي دفعه لهذا القنوت.

ويذكر الطاهر بن عاشور ان سبب تخصص الليل بالقنوت، لأن العبادة بالليل أعون على تمحص القلب لذكر الله،وأبعد على مداخلة الرياء وأدل على إيثار عبادة الله على حظ النفس من الراحة والنوم، فإن الليل أدعى الى طلب الراحة،فإذا آثر المرء العبادة فيه إستنار قلبه بحب التقرب الى الله تعالى.[٥]

فإن لليل مميزات، فاللذكر فيها حلاوة، وللصلاة فيها خشوعٌ،وللمناجاة فيها شفافيتها، وإنها لتكسب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً، قد لايجدها في صلاة النهار وذكره،لأن الله هو الذي خلق هذا القلب الذي يعلم مداخله وأوتاره، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيوءا، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه.[٦]

---

[٦] سورة التحريم: ٥.

[٧] سورة الاحزاب: ٣٥.

[٨] ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٣٣٥٥.

[١] سورة الزمر: ٩

[٢] ينظر: لسان العرب: ٦٠٧/١١.

[٣] التحرير والتنوير:٤٦٠٠/١.

[٤] سورة الانعام: ٩٦.

[٥] ينظر: التحرير والتنوير: ٣٦٦٧/١.

[٦] ينظر: في ظلال القرآن: ٣٤٧/٨.

قال البغوي:

(عبادة اليل أشد نشاطاً،وأتم أخلاصاً، وأكثر بركة، وأبلغ في الثواب من عبادة النهار).[٧] قال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾.[٨]

وقد أختلف المفسرون في المراد بالقانت على وجوه:

فذهب بعضهم الى القول بأنه المطيع،وقال أخرون أنه الخاشع، وبعضهم أنه القائم في صلاته، وقال البعض أنه الداعي لربه.[٩]

وتأوله جماعة في هذا الموضع بأنه قراءة القارئ قائماً في الصلاة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سئل عن القنوت فقال: (لا أعلم القنوت الا قراءة القرآن وطول القيام).[١]

فعن تميم الداري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):(من قرأ بمائة أية في ليلة كتب له قنوت ليلة)[٢]

قال إبن كثير: (إستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة وليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون).[٣]

وقد اختلف في تعيين القانت ها هنا:

فذكر أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهو قول يحيى بن سلام، وقال عطاء: ابو بكر (رضي الله عنه)، وقال إبن عمر رضي الله عنهما، هو عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وقال غيرهم: أنه عمار بن ياسر أو أبو ذر وقيل: إبن مسعود رضي الله عنهم أجمعين.[٤]

وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن هذه الروايات ضعيفة، ولا جرم أن هؤلاء المذكورين هم أحق من تصدق عليه هذه الصلة فهي شاملة لهم.[٥]

قال الثعالبي:

(والصحيح أنها عامة في كل من إتصف بهذه الصفة، وفي هذه الآية تنبيه على فضل قيام الليل).[٦]

---

[٧] معالم التنزيل: ٢٥٣/١.

[٨] سورة الزمل: ٦.

[٩] ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٩/١٥- ٢١٠، وفتح القدير: ٦٤٤/٤.

[١] جامع البيان:٦٢٠/١٠، وينظر: الجامع لاحكام القرآن:١٥ /٢١٠ ز

[٢] مسند أحمد بن حنبل: ٤/ ١٠٣، سنن النسائي الكبرى:٦/ ١٨٠، المعجم الكبير للطبراني:٥٠/٢، سنن الدارمي: ٢ /٥٥٦ وقال أسناده حسن،قال الهيثمي: (وفيه سليمان بن موسى الشامي وثقة إبن معين، وابو حاتم،وقال البخاري عنده مناكير وهذا لايقدح). مجمع الزوائد: ٥٤٦/٢.

[٣] تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٦١.

[٤] ينظر: زاد المسير: ٧ / ١٦٧، الجامع لاحكام القرآن: ١٥ / ٢٠٩ – ٢١٠، ومعالم التنزيل: ١ / ١١٠.

[٥] ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٣٦٦٨.

[٦] الجواهر الحسان: ٤ / ٤٩.

هذا هو القنوت لله، وحساسية القلب، واستشعار الحذر من الآخرة، والتطلع إلى رحمة الله وفضله، ومراقبة الله تعالى هذه المراقبة الخاشعة.

يقول سيد قطب:

(وهي صورة مشرقة مرهفة. فالقنوت والطاعة والتوجه – وهو ساجد وقائم، وهذه الحساسية المرهفة – وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه – وهذا هو الصفاء وهذه هي الشفافية التي تفتح البصيرة. وتمنع القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقي. وهذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر).[٧]

الخاتمة

بعد هذه الفترة الوجيزة التي قضيتها في رحاب القانتين والقانتات في القرآن الكريم، لابّد من ذكر أهم النتائج التي توصلت اليها وهي كما يأتي:

(١) ظهر أن لفظ القنوت لفظ مشترك، ويرد لمعان متعددة، فيصرف كل واحد من هذه المعاني إلى ما يحتمله لفظه الوارد فيه، لان حقيقة القنوت الدوام على الشيء فيجوز أن يقع في سائر المعاني التي ذكرها العلماء رحمهم الله تعالى أجمعين.

(٢) للقنوت أعراض داخلية وأخرى خارجية:

فأما الداخلية: فهي في تلك الحاجة الملحة في الانقياد، والطاعة النابعة من الإيمان الذي يتفجر من أعماق وأحاسيس النفس، فهناك وازع داخلي يدعوه إلى هذه الطاعة، أو وجود طاقة كامنة في أعماق النفس تدعوه إلى القنوت.

وأما الخارجية: فهي تتجلى بما يظهر على الانسان من حتمية الانصراف عن شؤون الدنيا، والتحرر من مفاتنها وشهواتها، واستحضار القلب عظمة من يقنت له وهو الباري عزوجل، يصحب ذلك طول المكوث والركود، أو غالب وقته يصرفه في ذلك، وأن تتحلى جوارحه بالسكينة والسكوت، مصحوباً بالانكسار والتذلل والخوف بين يدي الله تبارك وتعالى، مستحضراً خشيته، مع المداومة على الضراعة.

(٣) لم يذكر القرآن الكريم قانتاً بإسمه الصريح إلاّ إبراهيم (عليه السلام) وذلك لمحبته وإيمانه وطاعته المطلقة التي تغمر قلبه لله تعالى، وطول قيامه في العبادة المقرونة بالخشوع في جميع حالاته وحركاته وسكناته.

(٤) تفردت مريم ابنة عمران بأنها المرأة التي خصها القرآن الكريم بإسمها الصريح، ولم يؤمر الله تعالى إمرأة بالقنوت باسمها إلا هي، وتجلى ذلك الأمر بكثرة وطول ركودها في العبادات والطاعات، متبتلة إلى الله، منسلخة من مفاتن الدنيا وزخرفها، مقبلة إليه في سكينة وطمأنينة ووجل، غارقة في الخضوع والتضرع.

(٥) إن قنوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، والقيام بالطاعة لله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) على أحسن قيام، والمواظبة على هذه الطاعة المقرونة بالخشوع والخضوع والاستسلام المطلق لجميع أعضاء

[٧] في ظلال القرآن: ٧ / ١٢٨.

وحواس وكيان أمهات المؤمنين، وذلك لإظهار بيت النبوة بما يناسبه من السكينة والسمت والوقار، وليكون منارة إشعاع، وسبيل هدى، واسوةً وملاذاً لكل من دخل قلبه نور الإيمان.

(٦) ظهر جلياً أن جميع المخلوقات قانتة، وذلك بالتسخير والانقياد لمشيئة الله عز وجل وإرادته، والخاضعة خضوعاً قهرياً لتلك السلطة المطلقة التي تسير نظام الكون، فكل ما في الافاق والأعماق والأغوار، والظواهر والاحوال، خاضع لتلك المشيئة، وخاشع لإرادتها.

(٧) تتميز صفة القنوت بأنها صفة مستقلة بذاتها، يتصف بها الأتقياء من هذه الأمة، تتجسد في المداومة والمواظبة على الخشوع والضراعة لله تعالى، متأتية من تلك الطاعة النابعة من الفطرة المركوزة في النفس التقية النقية، الملازمة والمتقنة للعبادات الواجب أدائها لله تعالى.

(٨) من طبيعة المرآة الصالحة، ومن صفتها الملازمة لها، بحكم إيمانها وصلاحها، أن تكون قانتة ومطيعة لزوجها على أتم وجه، فهي فطرة قد جعلها الله في تكوينها.

(٩) لا تكتمل الصلاة وتكون حقيقية إلا بتحصيل القنوت فيها، وذلك باستشعار هيبة الله عز وجل وعظمته، والتفرغ فيها من كل فكر وعمل يشغل عن حضور القلب وخشوعه لله تعالى.

(١٠) إن سبب تخصيص الليل بالقنوت، لأنه يسكب في القلب أُنساً وراحةً ونوراً، وأبعد على مداخلة الرياء، وأدل على إثار عبادة الله على حظ النفس من الراحة والنوم، فللذكر فيه حلاوةٍ، وللصلاةِ فيه خشوع، فالانسان يكون فيه أشد نشاطاً وتفتحاً واستعداداً، وأتم إخلاصاً، فيقوم في هذا الظلام، فيبث شجونه وأحزانه، إلى من تجلت عظمته في ملكوت السموات والأرض ن يقف بين يديه يدعوه بضراعة ووجل، وتتحرك أحاسيسه بذلك النبض الهادئ الذي دفعه لهذا القنوت.

اللهم اجعلنا من القانتين لك، المواظبين على طاعتك، الطامعين في عفوك، الباذلين لخشوعك وضراعتك، آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

وهي بعد القرآن الكريم:

(١) الاتقان في علوم القرآن، لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (ت ٩١١ هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢) الآحاد والمثاني، لأبي بكر بن عمر بن الضحاك الشيباني، تحقيق: د.باسم فيصل احمد الجوابرة، ط١، دار الراية، الرياض – السعودية، ١٤١١هـ – ١٩٩١م

(٣) احكام القرآن، لأبي بكر احمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٠٥ هـ.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، (ت ٩٥١ هـ)، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح – القاهر – مصر.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لأبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، (ت ٧٩١ هـ)، تحقيق: عبد القادر عرفات العشاحسونه، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

(٦) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لأبي الوليد محمد بن احمد بن رشيد القرطبي، (ت ٥٩٥ هـ) ط٤، دار المعرفة – بيروت – لبنان، ١٩٧٨م.

(٧) البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، (ت٧٧٤ هـ)، مكتبة المعرف، بيروت – لبنان.

(٨) البرهان في علوم القرآن، لأبي الفضل محمد بن بهاد بن عبدالله الزركشي، (ت ٧٩٤ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٣٩١هـ.

(٩) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي، (ت ١٢٠٥ هـ)، مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.

(١٠) التبيان في تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، (ت ٨١٥ هـ)، تحقيق: د. فتحي أنوار الدابولي، ط١، دار الصحابة للتراث، طنطا – مصر، ١٩٩٢م.

(١١) التحرير والتنوير، للشيخ الطاهر بن عاشور، (ت ١٢٨٤هـ)، طبع الدار التنوسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

(١٢) التعاريف، المسمى (التوقيف عن مهمات التعاريف)، محمد عبد الرؤوف المناوي، (ت ١٠٣١هـ)، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، ط١، دار الفكر المعاصر – دمشق، دار الفكر – بيروت ١٤١٠هـ.

(١٣) التعريفات، لأبي الحسن علي بن محمد علي الحسيني الجرجاني، (ت ٨١٦ هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

(١٤) تفسيرالصنعاني، عبد الرزاق بم همام الصنعاني (ت ٢١١هـ)، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، ط١، مكتبة الرشيد، الرياض – السعودية، ١٤١٠هـ.

(١٥) تفسير القرآن العظيم / لأبن كثير، (ت ٧٧٤هـ)، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤١٠هـ.

(١٦) تفسير المنار، المسمى بتفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، ط٢، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

(١٧) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، ط٦، مطبعة الأستقلال الكبرى، القاهرة – مصر، ١٣٨٩هـ – ١٩٩٦ م.

(١٨) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، دار الشعب، القاهرة – مصر، ١٣٧٢هـ.

(١٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، (ت٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٠٥هـ.

(٢٠) جلاء الافهام في فضل الصلاة على محمد خير الانام، لأبي عبد الله محمد بن ابي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عبد القادر الأرنؤوط، ط٢، دار العروبة، الكويت، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

(٢١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، (ت ٨٧٦هـ)، مؤسسة الاعلمي، بيروت – لبنان.
(٢٢) الدر المنثور، عبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي، (ت ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٩٩٢م.
(٢٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، (ت ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
(٢٤) سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
(٢٥) سنن الدارمي، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ.
(٢٦) سنن النسائي الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١١ هـ ١٩٩١م.
(٢٧) صحيح إبن حبان بترتيب ابن بلبان، لأبي حاتم محمد بن حبان بن احمد البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ ١٩٩٣ م.
(٢٨) صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير واليمامة، بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
(٢٩) صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القيشري النيسابوري، (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
(٣٠) الصفدية، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط٢، نشر جامعة محمد بن سعود، المدينة المنورة – السعودية، ١٤٠٦ هـ.
(٣١) العجاب في بيان الاسباب، لشهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني،(ت٨٥٢هـ)، تحقيق: عبد الحليم الأنيس، ط١، دار ابن الجوزي – الدمام – السعودية، ١٩٩٧م.
(٣٢) عمدة القارئ، شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد العيني،(ت٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
(٣٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب شمس الحق العظيم أبادي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٥.
(٣٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت٨٥٢ هـ)، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٣٧٩هـ.
(٣٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، (١٢٥٠ هـ)، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
(٣٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٣٩١هـ – ١٩٧١م.

(٣٧) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، تعليق: ماجد الحموي، ط١، المكتبة التجارية – مصر، ١٣٥٦ هـ.
(٣٨) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت ٥٣٨ هـ)، ط٢، دار المصحف، القاهرة – مصر، ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.
(٣٩) كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، (ت ١١٦٢هـ)، تحقيق: أحمد القلاشي، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤٠٥هـ.
(٤٠) لباب النقول في اسباب النزول، للسيوطي، (ت ٩١١هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت – لبنان.
(٤١) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور المصري، (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت – لبنان.
(٤٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤١٢هـ.
(٤٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، (ت ٧٠١ هـ)، دار الكتب العربية الكبرى، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة – مصر.
(٤٤) المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م.
(٤٥) مسند أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، تذيل شعيب الارنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة – مصر.
(٤٦) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، المركز العربي للثقافة والاعلام، بيروت – لبنان، ١٩٨٠م.
(٤٧) معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء اليغوي،(ت ٥١٦)، تحقيق: خالد العك – مروان سوار، ط٢، دار المعرفة، بيروت _ لبنان، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
(٤٨) معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط١، الناشر جامعة ام القرى –مكة المكرمة – السعودية، ١٤٠٩هـ.
(٤٩) المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة العلوم والحكم، الموصل – العراق.
(٥٠) مغني المحتاج إلى معرفة الفاظ المنهاج، لشمس الدين محمد بن أحمد الشربيني الخطيب، (ت ٩٧٧هـ)، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٩٨٧م.
(٥١) مفردات الفاظ القرآن، للراغب الاصفهاني، (ت ٤٢٥ هـ)، تحقيق: عدنان داوودي، ط٣، دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.
(٥٢) مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، (ت ٣٩٥ هـ)، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.

(٥٣) منازل السائرين، عبد الله الانصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

(٥٤) موطا مالك، لأبي عبد الله مالك بن أنس الاصبحي، تحقيق: د. تقي الدين الندوي، ط١، دار العلم، دمشق – سوريا، ١٤١٣هـ – ١٩٩١م.